المحاضرة رقم (7): التواصل الأوركسترالي

الأهداف التدريسية:

- ✓ تلقين الطالب البناءات النظرية التي أسهمت في الاتصال الأوركسترالي.
- ✓ فهم الأبعاد الاتصالية لنموذج الأوركسترالي للاتصال على ميلاد أنثروبولوجيا الاتصال.

مقدمة:

اتخذت مدرسة بالو ألتو منحى معاكس للنظرية الرياضية لشانون، حيث قامت بالتخلي عن النموذج الخطي للاتصال، وتبنت النموذج الدائري الارتدادي الذي اقترحه وينر، حيث تقدم هذه المدرسة تصورا في حقل الاتصال يجب أن يتم بالنظر إلى مستوى التعقد والسياقات المتعددة والأنظمة الدائرية، إن دور المتلقي في هذه الرؤية التواصلية الدائرية يماثل في الأهمية دور المرسل، فقد حاول باحثو بالو ألتو وبالاعتماد على المقاربة النسقية تشخيص وتبيان وضعية تفاعلية شاملة، فماهية الاتصال حسب هذه المؤسسة تكمن في سيرورة علائقية وتفاعلية فكل سلوك بشري يملك قيمة اتصالية[1].

الاتكاء على النسق:

نشأت المقاربة النسقية في الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل الخمسينيات، وتستند هذه المقاربة على مفهوم التفاعل والتغذية الراجعة والانضباط والتنظيم والهدف والرؤية الكلية والنمو وتتبلور في عملية النمذجة التي تستخدم اللغة الرسومية وتنتقل من تطوير النماذج النوعية في شكل خرائط إلى بناء نماذج ديناميكية. ويعرف ولمان النسق بأنه مجموعة من العناصر لها نظام معين وتدخل في علاقات مع بعضها البعض لتؤدي وظيفة معينة بالنسبة للفرد، كما أنه مجموعة أجزاء أو وحدات بينهما اتصال داخلي، تؤثر هذه الأجزاء على بعضها البعض، وقد تتكون هذه الأجزاء من أعضاء كم هو الحال في الجسم الإنساني، أو أفراد الأسرة أو مجموعات في مجتمعات، وتتجمع هذه الوحدات وتتبادل التأثير والتأثر من خلال التواصل[2].

---

[1] ارمان وميشال متلار، مرجع سبق ذكره، ص 79.

[2] ايف وينكن، مرجع سبق ذكره، ص 59.

مدرسة بالو ألتو (المجمع الخفي):

تأسست مدرسة بالو ألتو في منطقة بالو ألتو بكاليفورنيا، وقد اقترحت نظرية جديدة للتواصل تتجلى في تجاوزها النموذج الخطي المحض الذي يمثله شانون، ثم بعده رومان جاكبسون واستبداله بالنموذج النسقي، على اعتبار أن التواصل حسب منظور مدرسة بالو ألتو أساس أي خلل قائم داخل النسق العائلي الاجتماعي، ومن المفاهيم الأساسية التي اعتمدت عليها بالو ألتو مفهوم "الإجبار المزدوج" كمفهوم ذي قيمة أساسية مكّنت من فهم حالة انفصام الشخصية بمعزل عن التصور الفورويدي، وتعتبر هذه المدرسة الاتصال ظاهرة اجتماعية حيث يتم التركيز فيها على العلاقة التي تربط صيرورة دائرية بحيث تحدث كل رسالة تغذية راجعة Feedback، ومن منظور بالو ألتو لا يختزل الاتصال في الرسالة اللفظية فحسب على اعتبار أن لكل سلوك اجتماعي قيمة تواصلية ففي حالة التفاعل "**لا يمكن إلا أن نتواصل**" حيث إن الإيماءات أو الحركات أو المواقف وبل السلوكيات تنقل من شخص ما (فالصمت يمكن أن يدّل على الخجل أو التحفظ أو القمع أو الامتعاض) وكل رسالة في التصور النسقي لنظرية التواصل حسب رواد هذه المدرسة تقضى مستويين من الدلالة فهي لا تنقل المحتوى الاخباري فحس بل تعبر أيضا عن شيء ما حلو العلاقة التي تربط المتخاطبين[3].

التصور الأوركسترالي:

شرح **Ray Birdwhistell** النموذج الأوركسترالي وفسر ذلك على أن جميع الأفراد الذين يتشاركون في أي فضاء مشترك ضمن الأبعاد الاجتماعية والنفسية هم "رجال أوركسترا" لأننا جميعا حسب قوله "نعزف" عدة آلات في وقت واحد ونلعب بالكلمات والإيماءات في المساحة الني تبنيها، الوقت، الصمت، الملابس، التي نرتديها والتي تمثل ناقلات اتصال مهمة[4]. فسر Winkin مقولة Birdwhostill أن قنوات الاتصال المختلفة هذه تعمل بشكل متزامن

[3] ايفن وينكن، مرجع سبق ذكره، ص 60.

[4] بلعباس تقي الدين، النسق الاتصالي في البيئة الصحية بالجزائر: دراسة إثنوغرافية على عيادة متخصصة بولاية المسيلة، أطروحة دكتواره، قسم علوم الإعلام والاتصال، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، 2022/2021، ص16، 17.

بالتنسيق بين النظرات والإيماءات التكاملية لجهل الاتصال أكثر كفاءة، ويقول أيضا "" منغمس في البحث عن صياغة أفكاري أخفض بصري لا أنظر أكثر إلى محاوري لكن موجة من اليد تسيطر، وتحافظ على العلاقة مع الجمهور[5].

يؤسس*Gregory Bateson مفهومه للجوقة حين قال "أن تتصل يعني أن تدخل في جوقة communique c'est entrer dans l'orchestre " ويقترح قبل بث رسالة ما ضرورة التساؤل لمن وبأية الآلة ومنه فالدخول في الجوقة يستوجب موافقة الفرد على اللعب على السلم الموسيقي واختيار الآلة المناسبة واحترام الوقت والايقاع واستماع الأخر والتحدث معه وهو ما يتطلب التمرين والمهارات واحترام القواعد

ينظر باتسيون وبرودسيتل إلى التواصل على أنه نشاط اجتماعي يدمج التواصل بين الأفراد، في مجموعة من الرموز الضمنية لفظية وغير لفظية في كثير من الأحيان مستندة على القواعد الاجتماعية التي تشكل ثقافة مشتركة ينتقل مبدأها من جيل إلى جيل. يؤدي التصميم الأوركسترالي إلى العديد من الملاحظات، والتي تؤثر بشكل كبير على تحليل عمليات الاتصال، والتي لها صلة خاصة بدراسة الاتصال في البيئات متعددة الثقافات كون الاتصال جزء لا يتجزأ من النظام الثقافي السائد في البيئة، فمن المستحيل الهروب منه ومن المستحيل عدم التواصل، إذ يعتبر الصمت في حدّ ذاته تواصلا، نتيجة لذلك فلا يمكننا الحكم على أن التواصل جيد أو لا ولكن يمكن دراسته إلاّ كعنصر من عناصر الأداء الاجتماعي لمجموعة أو مجتمع[6].

إن أعمال الاتصال لأعضاء المجموعة الاجتماعية ليست محاولات لنقل رسالة ما، ولكنها سلسلة من المظاهر الزائدة التي يتناسب فيها محتوى الرسالة مع مجموعة من الإجراءات الطوعية أو غير الطوعية التي تهدف إلى تأكيد انتماء جهات الاتصال إلى مجموعة الاجتماعية بحيث لا يمكن فهم المعنى الحقيقي للرسالة دون مراعاة هذه الإشارات الاجتماعية.

---

[5] المرجع نفسه، ص 16.

*جريجوري باتسون ولد في جرانتشيستر بالمملكة المتحدة في 9 مايو 1904. كان عالمًا أنثروبولوجيا وعالمًا اجتماعيًا ولغويًا وعالمًا في علم التحكم الآلي، وكان لعمله تداعيات في العديد من المجالات الفكرية الأخرى. تنعكس بعض أهم كتاباته في كتبه تجاه بيئة العقل (1972)، عقل والطبيعة وحدة ضرورية (1979) وحيث يتردد الملائكة. نحو نظرية المعرفة المقدسة (1987).

[6] بلعباس تقي الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص 16، 17.

نفهم بعد ذلك أن التواصل الأوركسترالي، لا يكون لمحتوى الرسالة أو لفظها هو الأسبقية من مجموعة الإيماءات والمواقف والتعبيرات والأشياء التي تحكم النطق وأحيانا تحل محله أو تناقضه، الشيء الرئيسي لفهم الموقف الاتصال والرسالة ليس "ماذا" ولكن "كيف"

شكل رقم 1: يوضح تمثيل النموذج الأوركسترالي[7]

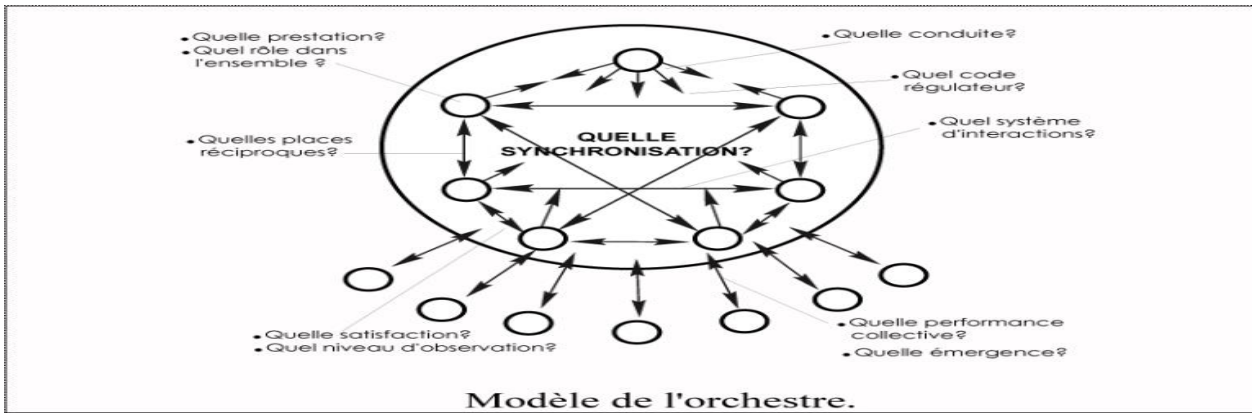

➢ **التواصل والأنثروبولوجيا والطب النفسي: غريغوري باتسيون**

في سنة 1951 نشر غريغوري باتسيون وهو أنثروبولوجي إنجليزي الأصل ويورغن رويش Jurgen Rush وهو طبيب نفس سويسري كتابا في الولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان **"التواصل: المصفوفة الاجتماعية للطب النفسي" Communication : the Social Matrix of psychiatry** حيث قام باعتبار التواصل لا يتعلق التواصل فقط بإرسال رسائل لغوية صريحة ومقصودة يدمج التواصل ما هو مستعمل من منظورنا مجموعة العمليات التي عبرها يحصل التأثير والتأثر المتبادلين بين المتواصلين، سيعترف القارئ بأن هذا التعريف يرتكز على مقدمة مفادها أن لكل فعل أو حدث يقدم مظاهر تواصلية بمجرد أن يدركها الإنسان[8].

ويرى باتسيون وروش أن التواصل يصبح قضية علمية إذا تصور الملاحظ الأشياء بصفة علائقية وممنهجة هيكلة أو نظامية، كما أن الاتصال يصبح ضورة بيولوجية للإنسان ومهما فعل فإنهم في تواصل، في هذا الصدد يقولان "تبقي

[7] MUCHIELLI, *« Les modèles de la communication », in La Communication -Etat des savoirs*, Paris, Editions Sciences Humaines, 2010, P. 68

[8] إيف وينكن، مرجع سبق ذكره، ص 60.

حواسنا على أهبة دائمة وتسجل بلا انقطاع الإشارات التي تصلها وبالمقابل فإن الأعضاء المثارة لا تكون أبدا في راحة، ونرسل باستمرار رسائل إلى العالم الخارجي... وبمقدار ما تفرض الطريقة التي بواسطتها يستجيب فرد لأحداث يدركها بعث رسائل نحو الأعضاء المرسلة الطرفية، يتصور نظام الأعضاء الداخلي بجلاء بوصفه جزءا من النظام البيشخصي إن لم نقل فوق شخصي (ثقافي)"، وعليه سيحاول رويش وباتسيون التمييز بين أربعة مستويات تبعا لمجال العلاقات التي يعتبرها الملاحظ الخارجي[9]:

- **داخل شخصي (ينحصر المجال في الذات)**
- **بيشخصي (بين فردين)**
- **جماعي (عدة أشخاص)**
- **ثقافي (أشخاص كثر)**

➢ **استحالة عدم التواصل**: في فصل المعلومة والتشفير، من كتاب "التواصل: المصفوفة الاجتماعية للطب النفسي" يقدم باتسيون بسرعة لائحة أفكار حول العلاقة بين نظام القيم وأنظمة تشفير المعلومة (حكم القيمة وحكم الواقع) ويقترح في هذا الصدد فكرة مفادها أن لكل رسالة هي في الوقت ذاته تقر*ير حول أحداث سابقة وأمرCommand يعني فعل المحاور

"حينما يتكلم أ مع ب، فإن الكلمات التي استعملها كيفما كانت ستكون ذات مظهرين: فهي ستكلم ب عن أ وتحمل المعلومة حول إدراك أو معرفة يمتلكها أ، وستكون هذه الكلمات سببا أو قاعدة لفعل قادم من طرف ب"

سيصبح الثنائي مؤشر/ أمر عند فاتزلافيك وزملائه بقليل من التشديد، علاقة بين جانب "مضمون" وجانب علاقة الرسالة (يشير جانب الأمر إلى الطريقة التي يجب أن تفهم بها الرسالة وفي نهاية المطاف فهم العلاقة بين الشركاء)، ويمكن اعتبار جانب الأمر أو علاقة الرسالة رسالة ثانية، تشمل الأولى وتحدد كيف يجب أن تفهم وتستوعب (مثال أمر، مزاح،

[9] إيف وينكن، مرجع سبق ذكره، ص 60.

*ترجم لفظ تقرير report المستعمل من طرف باتسيون إلى اللغة الفرنسية بـ "مؤشر".

شتم ...) سيتلم باتسيون في البداية ثم فاتزلافيك وزملائه لاحقا عن تواصل حول التواصل أي ما بعد التواصل (ميتا تواصل).

- **التواصل الرقمي والتواصل التماثلي:** ينبثق هذا النموذج الاتصالي من العلوم الهندسية، والذي يقوي التعارض بين اللغوي وغير اللغوي، وبين المحتوى والعلاقة يمكن أن تكون معلومة عن العالم الخارجي مشفرة، وأن تدخل في آلة بواسطة بعض العمليات التي تعتمد على المنطق الثنائي وهكذا نتحدث عن معلومة رقمية، وبالمثل فإن اللغة المبنية على اعتباطية الشفرة يمكن تصورها كعملية تشفير رقمي، وبالموازاة مع ذلك فإن أنماط السلوك غير الشفهي وفق باتسيون يمكن اعتبارها أنماط تواصلية تماثلية "لأن زخم الحركة، وعمق الصوت وطول التوقف وتوتر العضلات تقابل مباشرة أ عكسيا حجم العلاقات التي هي موضوع الخطاب"، وبالنسبة إلى باتسيون سيكون التواصل التماثلي طريقة التواصل حول العلاقات في حين ان التواصل الرقمي هو طريقة التواصل حول الأشياء (حول المضمون)[10].
- **التناظر والتكامل:** يتصور باتسيون دائما التفاعل بين الأشخاص أو بين المجموعات، كمقطع أو كمتتالية من ردود الأفعال تترتب عن ردود أفعال على ردود أفعل وهكذا، يميز بين نظامين أساسيين للعلاقات: علاقات تناظرية يدخل من خلالها المشاركون في أحضان دوامة مبنية على نوع حجم السلوك نفسه (مثلا العنف)، وعلى العلاقات التكاملية التي يكون خلالها المشاركون كيانا ثنائي القطب (مثلا الحماية والضعف، السلطة والخضوع، حب الظهور واستراق النظر)[11].

يقترح باتسيون عدة كيفيات سبرنطيقية تمكن النظام من الاحتفاظ على استقراره وتوازنه، وفيما يلي السلسلة التي تقود إلى الاستقرار والتوازن والتي أشار إليها في كتابه épilogue حيث تم اختبار هذه الافتراضات على مواضيع اثنوجرافية[12].

---

[10] ايف وينكن، مرجع سبق ذكره، ص 64.

[11] المرجع نفسه، ص 67.

[12] المرجع نفسه، ص71.

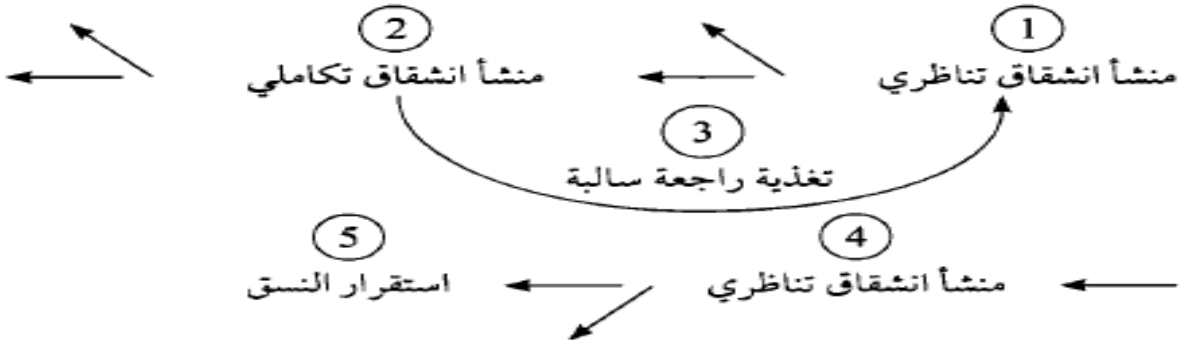

➢ **السياق: الاختلاف الذي يولد الاختلاف:**

السياق مصطلح شامل يدل على كل الأحداث التي تعين للهيئة وسط مجموعة الإمكانات التي يمكنها أن تقوم فيها بالاختيار الثاني، ويقحم باتسيون مصطلح "**مؤشر السياق**" الذي يعرفه كمصدر معلومة خاصة تسمح لهيئة بإدراكه وفهم ما إذا كانت تتطور في سياق مختلف أم لا، ويقترح **مؤشرات سياق السياق:** وهكذا إلى ما لا نهاية، يعني بهذه العبارة منطقيا، العناصر التي تسمح بتمييز سياقات تتم فيها الأحداث التي بذاتها تستعمل كسياق لأحداث أخرى[13].

الأبعاد السبعة للتواصل الأوركسترالي[14]:

- حينما نتصور التواصل كنشاط اجتماعي توضع آلية من رتبة عليا فوق الاتصال البيفردي، وكل فعل لبث رسالة يدمج في مصفوفة أكثر اتساعا تشبه الثقافة في اتساعها، وهذه المصفوفة هي التي تحظى باسم التواصل الاجتماعي وتشكل مجموع الشفرات والقواعد التي تجعل التفاعلات والعلاقات بين أفراد الثقافة ذاتها ممكنة وتصون انتظام قابلية التنبؤ، وهكذا يكون التواصل الاجتماعي دائما لا يعتمد على العمل الفردي بل يضمن الفرد إدماج فعله في استمرارية، فالفرد يعتبر فاعلا اجتماعيا وكأنه مشارك في كيان يستوعبه ويصنفه.

[13] يحي تقي الدين، محاضرات في مقياس: ابستيمولوجيا علوم الإعلام والاتصال، محاضرات موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر تخصص: اتصال وعلاقات عامة، جامعة محمد بوضياف بامسيلة.

[14] إيف وينكين، مرجع سبق ذكره، ص ص 96، 99.

- تحقق المشاركة في التواصل بكيفيات متعددة شفهية أو غير شفهية، يمكن من يساهم من الفاعلين المنخرطين في نظام التواصل إنتاج وحدات معلومات خاصة جدا، لكنها تبقي أنشطة نادرة جدا، تكون الأنشطة التواصلية في أغلب الأوقات أنشطة مراقبة وأنشطة تأكيد وأنشطة إدماج حيث يلعب التكرار دورا كبيرا وهكذا يحاول الباحث في التواصل الاجتماعي أن يحدد المضمون أكثر من السياق وأن يحدد المعلومة أكثر من الدلالة.
- لا تحدد القصدية في التواصل: حينما يتكلم شخصان بلغة معينة، فإنهما يشاركان في نسق لغوي قبلهما سيبقي بعدهما، حينما يتبادلان الكتابة فإنهما يستعملان شفرة تمكن الآخرين من قراءة رسائلهما.
- يعتبر التواصل بناء نظريا يسمح بدراسة متعددة التخصصات لديناميكية الاجتماعية.
- إن التواصل نظام تفاعل واسع بين الأجيال والتفاعلات في الحياة اليومية ليست سوى تفعيل وكل فاعل اجتماعي تمكن تدريجيا من تعلم بعض الشفرات وبرامج مجموعته وشريحته ومجتمعه.
- يعتبر البحث بالضرورة جزءا من النظام الذي يدرسه، سواء عمل أم لا على ثقافته الخاصة، وحتى عندما يدخل ثقافة غير معروفة مثل قادم من المريخ، فإن الباحث لا يمكنه إلا أن يفهم ولو على المدى القصير مظهرا من مظاهر سلوك محاوريه.
- يفهم بناء التواصل الاجتماعي عبر صورة الأوركسترا إذ يساهم أعضاء ثقافة معينة في التواصل مثلما يساهم الموسيقيون في الأوركسترا، لكن أوركسترا التواصل ليس لها قائد ولا يمتلك الموسيقيون نوتة، إنهم يعيشون تناغما إلى حدّ ما لأن بعضهم يسترشد البعض الأخر بالتناوب أثناء العزف، إن النغمة الموسيقية التي يعزفون هي بمثابة مجموعة تعالقات مهيكلة، إذ قام باحث بتفكيك هذه النغمة أو نسخ رموز النوتة سيري بلا شك أن النوتة التي حصل عليها أمر معقد جدا، وأن الأمر فعلا يتعلق بموسيقي وليس بمجرد ضجيج بسيط.

أسئلة للمناقشة:

- **كيف أسهم النموذج الخطي لشانون في بناء الاسهامات الأنثروبولوجيا الاتصال لأقطاب بالو ألتو؟**